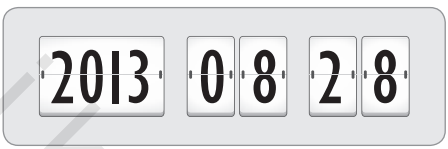

حيتني هيلاري بابتسامة لطيفة، فوجئت أنها كانت قد عادت وحيدة وبوجه مشرق يوحي بالسعادة، قررت مفاتحتها برد فعلي؛ كانت المرة الأولى التي أبدت فيها ولو إشارة إلى عاطفة، أردت تشجيعها، فقلت:

تبدين سعيدة بوجودك هنا يا هيلاري. هل أنت كذلك؟ أجابت:

نعم، أنا كذلك.

لم أستطع تصديق أذني، لم يقف الأمر عند كونها فرحة بمجيئها إلى جلستها، بل تجاوزه حتى إلى الاعتراف بذلك. سألتها:

وما الذي يعجبك في المجيء إلى هنا؟

يعجبني أنك تصغين إلي فعلاً، ولا يبدو أنك تصدرين أي أحكام؛ أستطيع الاسترخاء معك، لست دائمة التحصن بجلد وحيد القرن، وإن كان الناس يتوهمون أنني أفعل؛ مريح معرفة أنك لن تهاجمينني مهما بلغ مدى بوحي لك.

أجبتها: شكرًا يا هيلاري! يسرني أن تكوني شاعرة بما تقولين. كنت صادقة. (قلت في نفسي)، انبساطية أم لا، قد نصل إلى مكان ما آخر المطاف.

obeikandi.com

سألتْ هيلاري: ما الذي سنتحدث عنه اليوم يا دكتورة؟ هل نستطيع تناول موضوع مونيكا لوينسكي من الآن؟ الآخرون جميعًا تواقون إلى ذلك.

ظننت أنها كانت تستفزني، فقلت: قد أفضل أن تحدثيني عن حياتك أولًا.

شحب وجهها، غير أني أقدمت قائلة: حسنًا، أنت الدكتورة، كيف يتعين علي أن أتابع؟

حدثتني عن طفولتك وأبويك، إلا أنني لا أعرف شيئًا عن مراهقتك.

لا شيء جدير بالكلام؛ لم أكن إلا فتاة عادية... .

أشك أنك كنت عادية في أي وقت من الأوقات يا هيلاري. امتحنيني، وسوف نرى. ما كنت أفكر به فعلًا هو أنها كانت تخاف الكشف عن الألم الذي كان قد لازمها وهي مراهقة من دون شك.

غير أنها، ما إن بدأت الكلام حتى انطلقت بقدر غير قليل من خفة الدم والتوابل الكلامية المنكهة؛ قالت: حين أفكر بالمراهقة، أتذكر المدرسة، فمنذ البداية كنت ناجحة فيها؛ لأنني كنت أجتهد كثيرًا وأعود إلى البيت بورقة علامات ليس فيها إلا الدرجات القصوى، باستثناء تلك التي سبق لي أن أشرت إليها حيث حصلت على درجة (ب) في مادة وحيدة، أقدر أنني كنت المنجزة الكبرى في الصف، كان ذلك مصدر سعادة لأمي، حتى أبي يجب أن يكون قد شعر بالسعادة، وإن لم يُظهر سعادته، كنت على الدوام مدللة المعلمة، ما أسهم كثيرًا في دفع الصغار إلى كرهي، غير أن ذلك كان ثمنًا عادلًا.

أما ما عانيته دائمًا فهو قصر نظري الشديد، حيث وصف لي الطبيب نظارات بسُمك قعر قوارير الكوكاكولا وأنا لم أكن قد تجاوزت التاسعة من العمر بعد، حاولت تعديل النظارات وجعلها ألطف باختيار إطارات ملونة، حمراء،

obeikandl.com

وردية... إلخ، إلا أن ذلك لم يفد. الصغار في المدرسة كانوا يضايقونني بلا رحمة ملقبينني بـ(وجه البومة). أحيانًا لدى شعور بالزهو، و عند الاضطرار لحضور حفلة كنت أترك نظاراتي في البيت، وكانت إحدى الصديقات تجرني خلفها مثل كلاب المكفوفين. كثيرون من الصغار كانوا يظنون أنني متكبرة؛ لأنني لم أكن أحييهم، لم يكونوا يعرفون حقيقة أنني لم أكن قادرة على رؤيتهم.

واصلت استخدام تلك النظارات إلى أن حصلت على عدستين لاصقتين للمرة الأولى وأنا في الثالثة والثلاثين من العمر، أعرف أنني أبدو أفضل مع العدسات، ولكن هل تصدقين أني مازلت أشعر كما لو كنت (وجه البومة)؟ أحيانًا يكون الشعور طاغيًا فألوذ بالمرآة للتأكد. بدت حزينة.

تعاطفت معها وقلت: بصرف النظر عما كان شكلك وأنت طفلة، فأنت الآن امرأة جميلة.

أشرق وجهها وقالت: لا تقولين ذلك يا دكتورة لطمأنتي، أليس كذلك؟ لستِ في النهاية إلا في مهنة متدهورة، تقبضين ثمن جعل المرضى يشعرون بالارتياح.

أجبتها: لا يا هيلاري، حين تعرفينني على نحو أفضل ستجدين أنني لا أكذب على الإطلاق؛ قد أقول دائمًا ما في ذهني، غير أن ما أقوله هو الصدق دائمًا. بقي أن يتم اكتشاف ما إذا كانت قد صدَّقت أم لا.

تابعت هيلاري: مع أنني لم أكن جيدة الرؤية، تمكنت من أن أصبح رياضية ناجحة؛ كنت مفتقرة إلى الرشاقة في البداية، إلا أن أبي كان يصحبني يوميًّا إلى ملعب المدرسة، ويعلمني لساعات طويلة لعبتي كرة القاعدة وكرة القدم، وقد تدربنا كثيرًا حتى أصبحت في النهاية قادرة على مواكبة حتى الصبية.

فكرت: أليست تلك هي هيلاري؟ ما كانت لترضى مطلقًا بأداء أي شيء على نحو متواضع.

منذ أيام المدرسة الابتدائية طورت علاقات عميقة مع البنات. أما الصبية فكانوا يأتون بعد ذلك. في الصف السادس أصبحنا بتسي إبلينغ وأنا أفضل صديقتين، نفعل كل شيء معًا، حتى أخذ دروس البيانو من الأستاذ نفسه بعد أن تملقت أبي البخيل وأقنعته بشراء آلة عمودية (بيانو) قديمة. صديقي في الصف آرت كورتس يتذكر أننا وقفنا خارج بيتي وناقشنا السياسة، أصيب بالدهشة إذ وجدني قادرة على مناقشة باري غولدووتر معه، في حين أن جل الفتيات اللواتي كان يعرفهن لم تكنَّ مهتمات إلا بالملابس والفتيان.

في الثانوية كانت هيلاري – كما قالت – تتولى إدارة أمور فرقة المرشدات، بما فيها كرنفالات الحي، ولدى وصولها إلى مستوى ثانوية (مين إيست) كانت فاعلة في الأنشطة جلها الموفرة في المدرسة من خارج المنهاج الدراسي: أنشطة إصدار الصحف، الحكومة الطلابية، جمعية الإخوة، هيئة القيم الثقافية، لجنة حفلات الرقص، وفريق العرض الأكاديمي الذي كان يتنافس مع المدارس الأخرى على الشاشات التلفازية (حيث كانت هيلاري من أعضاء الفريق). كذلك انتُخبتْ بوصفها واحدة من المتفوقين الواصلين إلى الدوري النهائي الأحد عشر على النطاق القومي.

في تلك الأيام – قالت هيلاري – كنت أريد أن أصبح طبيبة؛ إلا أنني نفضت يدي من الفكرة حين غبت عن الوعي عندما رأيت الدم للمرة الأولى، وبعد ذلك كان ثمة حشد من الأمور التي حلمت بالقيام بها عبر سنوات المراهقة، بغية اختبار أنماط مختلفة من أساليب الحياة والشخصيات قبل الاستقرار على ما أردت أن أكونه. كنت مغرمة بالسفر إلى إفريقيا، وآسيا، وأوروبا، وعبر أرجاء الولايات المتحدة. كنت تواقة جدًّا لزيارة كاليفورنيا الشمالية، حيث كان (الهيبيون) (الخنافس) يعيشون لمجرد التسكع والتجول أينما شعرت أني راغبة في السفر.

كذلك راودتني أحلام يقظة كثيرة حول احتراف الفنون والمهن، احتراف التمثيل المسرحي، التمثيل التلفازي، والتمثيل السينمائي، ولقاء أنواع البشر جميعهم في طول العالم وعرضه. تصورت أنني كنت سأقوم بهذا كله في العام الذي يلي تخرجي في الكلية، ولكن قبل الالتحاق بمعهد الدراسات العليا (دراسات ما بعد التخرج). عندئذ لم يخطر ببالي أن خططي كانت لا واقعية بعض الشيء؛ ولكن أليست تلك هي المراهقة؟! مساعدة أي ناشئة على اكتشاف من وما يطيب لها أن تكونه/ها؟

قلت: تمامًا، أصبت الهدف بدقة.

ابتسمت.

لو طُلب إليَّ أن أصف نفسي وأنا طفلة بكلمة واحدة، لقلت طموحة. أذكر ذات مرة أنني كنت جالسة في حلقة على الأرض مع عدد من المرشدات، وكانت القائدة تدور حول الحلقة وتسأل كل واحدة منا عما ترغب أن تكون بعد النضج. الفتيات جميعهن قلن الشيء نفسه تقريبًا؛ أردن أن يكبرن فيصبحن أزواجًا وأمهات. وحين سألتني القائدة، قلت لها: صحيح أنني أريد أن أصبح زوجًا وأمًّا ذات يوم، غير أن ذلك ليس ما أردت أن أكونه. فوجئت وسألت عما عنيته. قلت لها إنني راغبة في أن أكون رائدة فضاء، وسأراسل ناسا (NASA) –وكالة الفضاء الأمريكية– عن كيفية التهيؤ لذلك. سائر الفتيات ضحكن مستهزئات، غير أني لم أبال، فقط أشفقت عليهن. يجب على كل إنسان أن يحمل أحلامًا كبيرة.

راسلت ناسا (وكالة الفضاء)، وغضبت كثيرًا حين جاء ردهم متضمنًا عدم الاهتمام برائدات فضاء. أبي كان يقول دائمًا إن البنات مساويات للصبية في كل شيء، ويجب تمكينهن من القيام بأي شيء يرغبن في القيام به بعد النضج. أعتقد أنه كان على صواب. الرفض آلمني طويلًا؛ أذكر أنني أبرزت بغضب

obeikandl.com

ضفيرة مؤخرة رأسي، وصرخت: عندما أكبر سأعمل من أجل تمكين النساء جميعهن من أن يصبحن ما يرغبن في أن يكنَّه؛ مازلت مصممة على ذلك.

حين كانت هيلاري في الرابعة عشرة من العمر، وقع حدث كان من شأنه أن يقلص إلى حد غير قليل من فرصها، وأن يغير من تفكيرها إلى الأبد؛ جد بتسي التقدمي اصطحب حفيدته وصديقتها هيلاري إلى سماع الدكتور مارتن لوثر كنغ الابن وهو يناقش قضية التمييز شمالاً وجنوبًا، صُدمت هيلاري إذ عرفت أن الأطفال الزنوج كانوا بين الأفقر والأكثر تعرضًا للحرمان في الأمة.

كان لمحاضرة كنغ تأثير عميق فيها، إذ لم يكن قد سبق لها قط أن عرفت زنجيًّا (عن كثب). ومنذ ذلك التاريخ وصاعدًا باتت راسخة القناعة بأن مأساة العلاقات العنصرية في أمريكا يجب أن تتغير، وبأنها ستفعل كل ما بوسعها لتحسين الوضع. لاحقًا، كثيرون من أصدقائها كانوا من الزنوج، وماريان رايت إيدلمان مؤسسة صندوق الدفاع عن الأطفال وظفت هيلاري لتحسين مصير الأطفال والمهملين، وما لبثت أن أصبحت راعيتها المهنية.

وعلى الرغم من أنها كانت من أوائل مؤيدي مارتن لوثر كنغ الابن، فإن هيلاري ظلت تعد نفسها جمهورية مثل أبيها. وحين كانت في الخامسة عشرة أصبحت إحدى فتيات غولد ووتر اللواتي اكتشفن التلاعب بالتسجيل في أحياء الأقليات بشيكاغو. بوصفها مراهقة مميزة، تمكنت شخصيًّا من رؤية مستوى حياة الحشود من الأمريكيين الأفارقة المفقرين، وهذا الاطلاع سحقها تمامًا.

تابعت هيلاري كلامها قائلة: ومع أنني كنت كثيرة الاستمتاع بالفعاليات الاجتماعية، فإن علاقتي مع أبي كانت تشهد تدهورًا بشعًا؛ صارت خسَّته تضغط على أعصابي أكثر فأكثر؛ لم يكن مستعدًا – مثلاً – للسماح لي بأخذ دروس في الرقص، على الرغم من أن صديقاتي جميعهنَّ كن يذهبن لحضور حصة الرقص مساء كل جمعة، وأنا كنت مغرمة بالرقص دائمًا، كان يعبر عن عدم رغبته في أن أراقص الشباب، غير أنني لم أكن أصدقه. لم يكن يعترض

حين كنا نقضي معهم وقتًا في لعب الكرة، الذهاب إلى السينما معًا، أو القيام بأي شيء مع الشباب، شرط ألا ينطوي الأمر على أي تكلفة مالية.

واصلت هيلاري تقول: لم يكن الشباب يجدونني فائقة الجاذبية، على أي حال، وتمثل أحد أسباب ذلك ببخل أبي الذي كان يحول دون ارتدائي لملابس لافتة، ونظاراتي السميكة المرعبة كانت سببًا ثانيًّا، يضاف إلى هذا وذاك كان لمظهري هيئة نسوية، في حين أن الشباب كانوا أميل إلى الفتيات ذوات المظهر الشبابي. كذلك كنت أعاني بسبب شَعْري ومازلت، وما الجديد أيضًا؟ كان الشباب يظنون أني ميالة إلى السيطرة، ويلقبونني فيما بينهم بـ (الأخت ثلاجة)، كان ذلك يعكرني فعلًا.

فكرت بذلك التعليق غير اللطيف حين سمعت نكتة جاي لينو غير الصحيحة حول الموضوع، «فوجئت برسم صورة لهيلاري. رأيت أن تمثالًا من الجليد كان من شأنه أن يكون أنسب». كنت أتمنى ألا تكون قد سمعت (النكتة) وإلا فإن انزعاجها كان سيتضاعف.

استأنفت هيلاري الكلام: أزعجني ذلك لأنني لم أكن قد استكملت اجتراح الجلد السميك بعد، كان الشباب يروونني فأرة كتب غير اجتماعية، ومع أنني كنت أتألم آنذاك، فإن علي أن أقر بأنهم كانوا على صواب؛ مازلت غير اجتماعية على الرغم من أنني تعلمت وصرت أجيد فن التخفي.

obeikandl.com